عند الكيلو..... ٢٦

كانت الشمس ترسل ضوءها إلى الكون، فتكسوه برداء أصفر اللون يشبه الذهب، عندما قادت د.مها سيارتها فى شارع جمال زعيتر بمدينة الوحدة الوطنية قرب طريق مصر اسكندرية الصحراوى، ذاهبة إلى مصنع الكمال للأسمدة، الذى تملكه ابنتها الكيميائية سماح.

ومالبثت د.مها أن أنقصت من سرعة السيارة رويدا رويدا، عندما صارت على بعد أمتار من المصنع، إلى أن وقفت السيارة أمام باب المصنع، فأحكمت غلق أبوابها وهبطت منها، وسارت متجهة إلى باب المصنع، وألفته مواربا، فأزاحته قليلا واجتازت عتبة الباب، وكان البواب يقوم بتنظيف المدخل، فألقت عليه تحية الصباح، فرد البواب التحية بصوت خافت دون أن يتزحزح من مكانه أو يدع مايفعل، وسارت د.مها فى الفناء متجهة إلى داخل المصنع.

لم تلتق د.مها أثناء سيرها فى الممر الذى تقع به حجرة مديرة المصنع بأحد من العمال أو الموظفين، وكان باب حجرة المديرة مغلقا، فحدست أن الجميع شغلوا

بتصنيع ماطلبته شركة سعيد عامر من سماد، فانتابها الشعور بالارتياح، وانعكس أثر ذلك على ملامح وجهها، وكادت ترتسم على شفتيها ابتسامة وهى تضع المفتاح فى قفل الباب وتديره، وبعد أن فتحت د.مها الباب، دخلت إلى الحجرة، وجلست على مقعد أمام المكتب.

لم يطل انتظار د.مها، فأتت سماح إلى الحجرة بعد قرابة بصف ساعة، وأثناء ذهابها إلى المقعد خلف المكتب لتجلس، ارتسمت على شفتيها ابتسامة رائعة أودعتها كل ما يكن قلبها من حب تجاه أمها التى أعطت لها فيلتها لتقيم عليها المصنع بعد أن تخرجت من قسم الكيمياء بكلية العلوم.

فكرت سماح برهة. ثم قالت:

- قولى لى مبارك ياأمى.

نظرت د.مها إلى سماح بتساؤل. وقالت:

- لماذا؟

أجابت سماح:

- عميل آخر اتصل بى أمس وطلب كمية كبيرة من السماد، ووعدنى بأن يزورنى بالمكتب صباح اليوم لنتفق.

كسا السرور والغبطة وجه د.مها. وقالت:

- وفقك الله ياابنتى. أتمنى لك المزيد من التقدم والنجاح.

شكرتها سماح، ثم شغلت الاثنتان بأحاديث عادية عن شئون الحياة اليومية، وكانت سماح أثناء ذلك تنظر إلى الساعة بمعصمها من حين إلى آخر، ثم لاح شئ من الضيق على وجهها فجأة. وقالت:

- تأخر العميل عن موعد حضوره بنصف ساعة.. أرجو ألا يكون قد عدل عن رأيه.

وقبل أن تسمع سماح رد أمها، بلغ مسمعيها صوت طرقات خافتة على باب الحجرة.

فتح الباب بعد هنيهات، ودخل إلى الحجرة رجل ما أن وقع عليه بصر د.مها حتى اربد وجهها. وصاحت قائلة فى غضب:

- ماذا أتى بك إلى هنا أيها اللص؟

ارتبكت سماح، واستولت عليها مشاعر مختلفة، مزيج من الخجل والدهشة والتعجب والحيرة.

واندفعت الاتهامات من فم د.مها وكأنها قذائف أخذت تنهال على الرجل بقوة دون أن يستطيع لها دفعا، فذهبت سماح إلى أمها، وحاولت أن تهدئ من ثائرتها دون جدوى تذكر، ثم رأت الرجل يستدير ويسير متجها صوب باب الحجرة.

ذهبت سماح إلى الرجل بسرعة ولحقت به واعتذرت إليه، وأخبرته بأن فى الأمر سوء فهم غير مقصود، وجذبته

من ذراعه برفق، وقادته إلى مقعد، فجلس على مضض، وطلبت له مشروبا مثلجا، وعادت إلى مكانها، وران الصمت والسكون على الحجرة برهة، شغل خلالها كل منهم بأفكاره.

شق السكون مجئ الساعى إلى الحجرة وبيده صينية عليها كوب من العصير، وضعها على منضدة أمام الرجل، وسأل سماح إن كانت فى حاجة إلى شئ آخر، وعندما نفت ذلك، انصرف إلى حال سبيله.

بعد فترة قصيرة، رشف العميل آخر رشفة فى كوب العصير، وأعاد الكوب إلى مكانه بالصينية فى حيرة وضيق.

وما لبثت سماح أن طرحت على العميل سؤالا تلو الآخر، وكان العميل يجيب عن أسئلتها بإسهاب، فتمكنت من الحصول على المعلومات المطلوبة لإتمام الصفقة، لذا عندما أبدى الرجل رغبته فى الانصراف أذنت له، وكررت اعتذارها له على ماحدث من سوء فهم، ووعدته بأن تقوم بعمل الإجراءات اللازمة وأن تتصل به.

وما أن غادر العميل الحجرة حتى بادرت مها قائلة فى غضب:

- هذه الصفقة لن تتم.

استولى على سماح الشعور كأن حجرا ثقيلا سقط على رأسها فجأة، ومنع عقلها من التفكير، فألجم لسانها،

ومضت برهة قبل أن تسترد شتات ذهنها. ثم تساءلت:

- ماالسبب؟ إن هذا العميل لم يرتكب جرما سوى أنه تأخر عن الحضور فى موعده نصف ساعة.

ازداد غضب د.مها. وقالت:

- لاتتعاملى مع هذا. إننى أعرفه جيدا وكفى.

لاح على وجه سماح المزيد من الشعور بالدهشة والتعجب والحيرة، وفى نبرات صوت تحمل فى طياتها شيئا من التوسل. قالت:

- ماالسبب يا أمى؟ أريد أن أعرف السبب لكى أعرف كيف أتعامل معه.

ترددت مها لحظة. ثم قالت:

- هذا الرجل اعتدى على هذه الأرض التى بنيت عليها مصنعك وسرقها وجعلنى أنفق كل مالدى من مال لكى أستردها.

استولى على سماح شعور يشبه أن تكون قد أصابتها صاعقة عقدت لسانها، وجعلته يعجز عن النطق، فظلت جالسة فى مكانها تحملق إلى الفراغ أمامها فى سهوم.

بعد لحظات، استردت سماح قدرتها على التفكير، وفى نبرات صوت امتزجت بها الحيرة والضيق رجت أمها أن تقص على مسمعيها ماحدث من هذا الرجل بالتفصيل.

اعتدلت مها فى جلستها، وتلاشى من على صفحة وجهها كثير من الغضب، وبدأت تحكى لابنتها ماحدث منذ أكثر من ستة أعوام.

فى ذلك الوقت، لم تكن الأرض التى أقيم عليها هذا المصنع سوى قطعة أرض مستطيلة الشكل أقيم فى زاوية منها شقة صغيرة تتكون من حجرتين، كانت مها تقيم فيها بضعة أيام من حين إلى آخر،تتفرغ فيها لكتابة الأبحاث والدراسات فى مادة الفلسفة التى تقوم بتدريسها فى الجامعة.

وفى يوم ما، وكانت د.مها وأختها الصغرى ماجدة جالستين على أريكة بحجرة المعيشة تشاهدان برنامجا فى التلفاز، وكانت الشمس فى آخر النهار قد جمعت خيوطها من الكون وجعلتها على هيئة قرص أرجوانى اللون، احتل بقعة من السماء جهة الغرب، طرق أذنى كل من مها وأختها صوت قادم من ناحية من السور الذى يحيط بقطعة الأرض، فنظرت كل منهما إلى الأخرى فى تساؤل، وعندما استمر الصوت، دفعهما الشعور بحب الاستطلاع إلى الخروج لمعرفة سبب الصوت، وهالهما ما رأتا، واستولى عليهما الشعور بالخوف والهلع، فوقفتا تحملقان إليه فى دهشة وذهول.

لقد وقع بصراهما على الشاب المكلف بحراسة المبانى فى هذه المنطقة من الشارع- أحمد سالم الغول- معتليا السور، وبيده اليمنى منشار كهربى، أخذ يشق به السور فى شراسة بالغة، وكأنه فى معركة حربية يشق صدر عدوا عانى منه كثيرًا قبل أن يتمكن من الإيقاع به، لذا فهو يخشى أن يفلت من يده دون أن ينال عقابه، وقد وضع يده اليسرى على مسدس أخفاه فى جيب الجلباب الفضفاض الذى ارتداه، والذى كان قد انتفخ فى الهواء كالبالون وجعل منظر الرجل قد ازداد ضخامة على ضخامته.

وقد خيل إلى د.مها فى هذه اللحظة أن أحد الوحوش التى قرأت عنها فى كتب الأساطير، والتى لايوجد مثيل لها فى الحاضر، انقض على السور بقوة يبغى هدمه.

بعد هنيهات، أفاقت د.مها من ذهولها، واستطاعت أن تتمالك القليل من رباطة جأشها، وفى نبرات صوت حرصت على أن تكون هادئة بقدر الإمكان خشية أن يتهور الرجل وأن يستعمل المسدس. تساءلت:

- ماذا تفعل ياشيخ أحمد؟

وفى نبرات صوت مليئة بالغرور والتكبر. أجاب أحمد:

- هذه أرضى اشتريتها من ميلاد مشرقى و...و...

لم تستطع د.مها أن تصغى إلى كلمة أخرى، فقد اجتاحتها عاصفة جديدة من الغضب جعلت عقلها

يتوقف عن التفكير، وتردد فى أذنيها ماسمعت به من حوادث السطو على الأراضى فى هذه المنطقة، وإقامة المبانى عليها بأموال تم الحصول عليها من الاعتداء على الأفراد وسرقة أموالهم، وكأنها تسمعه فى هذه اللحظة.

نفضت د.مها عن ذهنها هذا التفكير بعد لحظات، عندما بلغها صوت ماجدة تتشاجر مع أحمد، وتأمره بأن يدع السور وأن يذهب إلى حال سبيله، وتهدده باستدعاء شرطة النجدة، فانتابها الخوف على ماجدة، وطلبت منها أن تكف عن الشجار فسكتت.

ثم حصرت د.مها تفكيرها فى أمر واحد، هو أن تمنع هذا الشقى من الاستيلاء على أكثر من نصف أرضها، فقالت باحتداد:

- هذه الأرض ملكى، وقد اشتريتها قبل أن تولد، ومع ذلك، إذا كنت تدعى إنك اشتريتها اذهب إلى المحكمة وارفع دعوى ضدى.

لم يتوقف أحمد عن شق السور، وصاح قائلا فى غضب:

- لن أذهب إلى المحكمة.. اذهبى أنت إلى القضاء. وأنا سأحصل عليها بطريقتى. لن أفعل مافعلته حورية حماتى.

فى الحال أدركت د.مها أن أبناء حورية -أحمد أبو العلا وأخويه- ورثوا عن أمهم الطمع فى هذه الأرض والرغبة فى الاستيلاء عليها عنوة، وأن الحديث مع هذا الشخص لن

يجدى، فأضمرت فى نفسها أمرا، واستدارت وسارت متجهة صوب باب الشقة، وتبعتها ماجدة فى صمت وسكون.

وبعد أن سارتا بضع خطوات. تساءلت ماجدة:

- من حورية هذه يا مها؟

أجابت د.مها:

- امرأة لا أعرفها ادعت أن أرضى ملكها وزورت عقدا ورفعت ضدى قضية فى المحكمة، ورفضت القضية، وبعد وفاتها يسعى أبناؤها الثلاثة إلى الاستيلاء على هذه الأرض بكافة السبل، ويكيدون لى من وقت لآخر.

قالت ماجدة فى صوت خفيض، وكأنها تتحدث إلى نفسها:

- الله المنتقم الجبار.

ثم فكرت برهة، وفى نبرات صوت بدا كأنه قادم من أغوار بئر عميق قالت فى شئ من التردد:

- لن أستطيع أن أنسى أنها سرقت أثاث المنزل الذى بذلت فيه مع خطيبك كل ما استطعتما من جهد لشرائه، ولوثت سمعتك لكى يفسخ الخطبة.

استولى على د. مها الشعور كأن نصل سكين حاد انغرس فى قلبها فجأة، فازدادت شدة خفقانه حتى خيل إليها وكأنه يوشك أن يفر من صدرها، وانسكب فى جوفها مزيد من الشعور بالحزن والقهر والإحباط والمرارة، غير أنها

بذلت مجهودا مضنيا لكى تخفى عن ماجدة حقيقة مايعتمل فى صدرها من مشاعر فأخفقت، ذلك لأن ملامح وجهها ازدادت تجهما وقتامة، فأطرقت برأسها فى ضيق.

وانعكس أثر ذلك على ماجدة. فقالت فى نبرات صوت امتزجت بالحزن والغضب:

- أعانك الله.

وغمغمت د. مها ببضع كلمات مبهمة وسارت متجهة إلى حجرتها.

بعد قليل، ذهبت د.مها إلى قسم الشرطة للإبلاغ عن الحادث، وسلكت الكثير من السبل التى تمكنها من استعادة أرضها باستخدام القانون إلى أن نجحت فى ذلك.

توقفت د.مها عن الحديث، وساد الصمت أرجاء الحجرة برهة شغلت خلالها كل منهما بأفكارها إلى أن شقت د.مها الصمت والسكون بأن قالت وقد ارتسمت على شفتيها ابتسامة:

- وها هى الأرض وقد آلت ملكيتها إلى ابنتى الحبيبة المهندسة سماح.

قالت سماح فى تأثر:

- لك حق.

ومدت يدها إلى درج بمكتبها وتناولت الهاتف المحمول، وبدأت فى طلب رقم هاتف العميل.